دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: أضواء على الفكر السياسي السوداني الحديث : نشأة وتطور القوي الحديثة
المصدر: مجلة محاور
الناشر: جامعة ام درمان الاهلية - مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية
المؤلف الرئيسي: صالح، محجوب محمد
المجلد/العدد: ع2
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 1999
الشهر: فبراير
الصفحات: 7 - 21
رقم MD: 641254
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: HumanIndex, EcoLink
مواضيع: الحكم البريطاني للسودان
رابط: http://search.mandumah.com/Record/641254

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

أضواء على الفكر السياسي السوداني الحديث (2):

# نشأة وتطور القوى الحديثة

محجوب محمد صالح*

تحدثنا في العدد الأول من هذه المجلة عن مرتكزات الفكر السياسي للنخب التقليدية من زعماء عشائر ورؤساء وطوائف وكبار موظفين وتجار، كما عبر عنه السيد حسين الخليفة شريف حفيد المهدي وابن أحد خلفائه ورئيس تحرير أول صحيفة يمتلكها سودانيون (حضارة السودان). واليوم نتحدث عن الفكر السياسي المعارض لهذه المدرسة، والذي بدأت إرهاصاته بداية العقد الأول من هذا القرن واشتد عوده مع نهاية الحرب العالمية الأولى. هذه المدرسة اعتمدت على شباب في العشرينات من أعمارهم ما عايشوا دولة المهدية، ولدوا أخريات أيامها أو بعد سقوطها، سمعوا روايات شفاهية عن عهدها أو قروا كتباً ألفها أجانب عنها، وعايشوا ظروفاً مختلفة، وعاشوا تحت أجواء مختلفة.

لقد ظلت المدارس التي فتحها الحكم الجديد مطلع القرن تخرج أفواجاً من الطلاب من مختلف المستويات يجدون طريقهم إلى دواوين الحكومة. بنهاية العقد الأول من هذا القرن كان في مدارس السودان حوالي الأربعة آلاف طالب، أغلبهم في قاعدة الهرم التعليمي، أي في المدارس الأولية (2500 طالباً)، وقليل منهم في قمة الهرم، أي في كلية غردون التذكارية يدرسون في أقسام الهندسة والقضاء الشرعي والمعلمين والكتبة والمحاسبين. أما البقية الباقية فكانوا في المدارس الوسطى، والمدارس الصناعية؛ وفي كل عام كان ينضم رتل من خريجي تلك المدارس إلى العاملين في دواوين الحكومة وورشها ومصانعها. لقد بدأ المجتمع يتغير عما كان عليه على عهد المهدية. المدن القديمة توسعت ونشأت مدن حديثة لتلبي حاجة النشاط التجاري والاقتصادي. كانت التجارة في مراقيها العليا في يد الشركات البريطانية وفي درجاتها الوسطى في يد الأجانب الذين وفدوا في معية الجيش الغازي من أغاريق وأرمن وشوام، وتركوا لأهل البلاد النشاط التجاري البسيط في السوق الداخلي.

لقد تجذر جهاز الدولة في المدينة، وترك الريف في سباته القديم تتركز السلطة فيه في يد زعاماته القبلية والطائفية. أما في المدينة فقد أخذت القوى الحديثة تنمو وتتزايد - موظفون في دواوين

---

* صحفي وكاتب معروف.

الحكومة وتجار في أسواق المدينة، وصناع في ورشها ومؤسساتها، ضمتهم المدينة وخلقت بينهم علاقات ووشائج جديدة تتأثر بهذا الوافد الجديد وبالظروف المتغيرة والانتعاش الاقتصادي الذي صاحب الارتباط بالسوق العالمي والنشاط التجاري الخارجي. لقد امتدت السكك الحديدية حتى الأبيض غرباً (1912)، ونشأت ميناء حديثة في بورتسودان (1909)، وقامت مدن حديثة في عطبرة (مركز السكك الحديدية) وفي بورتسودان موقع الميناء الجديد وفي الخرطوم بحري الميناء النهري الكبير ومستودع الحكومة، وتوسعت مدن قديمة مثل الأبيض ومدني. في هذه المدن عاشت الصفوة المتعلمة تعليماً حديثاً في مدارس النظام الجديد. أصبحوا أهل مدينة ضعفت صلتهم بالريف ولكنها لم تنقطع. عاشوا في عالمين، بين جديد يجذبهم وقديم لا يستطيعون منه فكاكاً. لقد نجحوا- كثيراً - في خلق التوازن المنشود، سعوا إلى التوفيق بين القديم والجديد، ولكنهم لم يتخاذلوا ساعة المواجهة عندما اقتضاها الصراع. وخلقوا في مجتمعهم الجديد علاقات من نوع جديد: صلات الزمالة في العمل والجيرة في السكن والتقارب في المشارب والتوافق في الفكر. كانوا يقضون أوقات فراغهم في القراءة والاطلاع والسمر، واهتموا بالتمثيل والمسرح، وبالشعر والأدب، وبالمساجلات والمناقشات وخرجوا بها من محدودية منازلهم إلى رحاب أوسع في الاحتفالات الدينية: المولد النبوي وعيد الهجرة وسائر الأعياد والمناسبات الدينية. أحسوا بعجزهم أمام الحاضر فهربوا إلى الماضي يستدعون من ذاكرته تجربة الدولة الإسلامية وعظمة الحضارة العربية يستلهمون منهما عظة وعبرة ويستمدون منهما قوة يواجهون بها ضعف الحاضر. وبدأوا يعبرون عن فكرهم كتابة في "السودان" وفي "الحضارة"، كما قرأوا صحافة مصر وتأثروا بأدبائها ورددوا قصائد شعرائها وتابعوا نشاط ساستها وحفظوا أسماءهم وأجزاء من خطبهم، وانبهروا بما قرأوا وسمعوا، ورأوا فيه أملاً بعودة الماضي الإسلامي العربي- ذلك الماضي الذي عشقوه وفتنوا به؛ وتمنوا أن يسهم النشاط الذي تقوده مصر في استعادة ذلك النموذج الوضاء. ما فتّ في عضدهم أن بلادهم لم تسهم في ذلك الماضي المشرق من طرفها القصي الذي عاشت فيه، فقد كان يكفيهم شرف الانتماء له والاقتداء به.

## عصر المخاض:

قادهم هذا النشاط الأدبي رويداً رويداً إلى الحقل السياسي؛ توزعوا في مجموعات صغيرة هنا وهناك طابعها الصداقة والزمالة والفكر المشترك، يتجادلون ويناقشون حول مستقبل لا يرون إرهاصات

مولده ولكنهم يعون دورهم في خلقه. لا غرو أنهم اتجهوا نحو تجميع طاقاتهم، فكانت البداية في نادي الخرجين بامدرمان مع نهاية الحرب العالمية الأولى. الفكرة قديمة ظلوا يتجادلون حولها منذ عام 1911 حين نادى بها حسين شريف على صفحات "السودان"، غير أنها لم تتحقق إلا بعد سنوات سبع؛ فقد آذنت نهاية الحرب بتغييرات أخرى لا تقل عمقاً - تغييرات هبت رياحها من خارج الحدود فأثارت العواصف في سكون مجتمعهم، وانداحت دوائر الحركة كما تنداح موجات المياه عندما يلقى حجر في بحيرة ساكنة. كان هناك مؤتمر الصلح في باريس الذي جاءت إليه الدول المنتصرة وحجت إليه وفود الدولة المقهورة بالاستعمار، وتقدمت صفوفه أمريكا ورئيسها يحمل مشروعاً أو ميثاقاً من أربعة عشر نقطة فيها واحدة تنادي بتقرير المصير للشعوب التي ترزخ تحت نير الاستعمار. كان ذلك هو الضوء في نهاية النفق المظلم الذي عاشت فيه الدول المقهورة، فلا عجب أن تسابقت إليه تحمل كتابها بيمينها وإن عاد أكثرها خالي الوفاض. ذهبت إليه مصر تحمل قضيتها فما نصرها المؤتمر فعادت تفجر ثورتها، وانفعل بها ومعها أهل السودان. قاومت القوى التقليدية دعاوي مصر في وحدة وادي النيل وانحازت إلى الإنجليز وفرضت المعركة نفسها على معسكر الشباب قبل أن يهيئ نفسه لخوض غمارها، فكان أن ولدت حركتهم السياسية على عجل لتتصدى للقوى التقليدية ولتناصر مصر في موقفها ولتحمل راية العداء للاستعمار البريطاني. المواجهة- إذن- كانت ذات ثلاثة محاور: مواجهة مع الاستعمار البريطاني، ومواجهة مع القوى التقليدية، ومساندة لمصر تجر لهم عداء الإنجليز ومعسكر الآباء.

ولكي نحيط بفكرهم ينبغي أن نرصد كيف تعاملوا مع المحاور الثلاثة، وكيف نظموا أنفسهم وكيف عبروا عن أفكارهم وأي الطرق سلكوا وأي الوسائل انتهجوا لتحقيق غاياتهم. عندما نتعرض لفكرهم السياسي لن نجد منبراً في السودان يعبر عنه، مثلما عبرت جريدة "الحضارة" عن المعسكر الآخر، ذلك لأنه كان فكراً متمرداً تحاصره السلطات وتمنعه من التعبير عن نفسه. لذلك ينبغي أن نتلمس ذلك الفكر في مظان عديدة وأن نبحث عنه في مصادر أخرى، لعل أهمها:

- المنشورات السرية التي كانوا يصدرونها ويرسلونها بالبريد للمواطنين في السودان؛ البرقيات التي يبعثون بها للسلطات يعبرون فيها عن مواقف معينة؛ المظاهرات التي يسيرونها دعماً لمطالبهم؛ والأغاني الشعبية التي تردد في مجالسهم.
- المقالات والقصائد التي يسربونها رغم الحصار الأمني إلى صحافة مصر، والرسائل التي يبعثون بها إلى الساسة والمفكرين المصريين.

- وأخيراً تقارير الإدارة البريطانية التي يعد أغلبها رجال المخابرات عن نشاط هذه الجماعات وعن أفكارها وخططها وتحليلهم لمقاصدها وأهدافها، رغم ما في هذا المصدر من شبهة سوء القصد ومظنة سوء الفهم واحتمالات التحيز.

**بداية النشاط السياسي:**

أثارت أحداث الثورة المصرية- كما قلنا - موجة من النشاط في السودان أحس معها شباب تلك الفترة ضرورة التعبير عن فكرهم المناهض للمعسكر الآخر. من العسير أن نحدد تاريخاً بعينه لمولد فكر معين، فالأفكار تنمو وتتطور وتتلاقح وتتفاعل، تتقدم من بدايات بسيطة إلى نهايات مركبه، تواكب تطور المجتمع؛ بيد أننا نستطيع أن نلتقط خيوط تطورها من نشأة التنظيمات التي تؤسسها في تواريخ معينة لأن تلك التنظيمات تظهر في لحظات تاريخية محددة تكون تطورات الأحداث قد قادت إليها. لذا نأخذ العام 1920م كعلامة فارقة إذ أنه العام الذي شهد مولد أول تنظيم سياسي سري. ففي هذا العام نشأت جمعية الاتحاد السوداني التي أسسها خمسة من شباب ذلك العهد انحدروا من أسر كبيرة. كان آباؤهم من ركائز معسكر القوى التقليدية. تخرجوا جميعاً - عدا واحد - من كلية غردون والتحقوا بوظائف مرموقة في السلك الوظيفي، اثنان منهم - إبراهيم بدري وتوفيق صالح جبريل- كانا (نواب مأمير) وأثنان كانا من موظفي السلك الكتابي والهندسي- عبيد حاج الأمين ومحي الدين جمال أبو سيف. أما المؤسس الخامس - سليمان كشة- فقد تخرج من المدرسة الوسطى وعمل بالتجارة مع أسرته.

وما لبثت الجماعة أن توسعت لتضم المزيد من الخريجين في العاصمة ومدن الأقاليم. أسماء لامعة لشباب ذلك العصر التحقت بها: الشاعر الشهير يومها مكاوي يعقوب والناقد الأدبي المتميز الأمين على مدني وأشهر فناني الفترة خليل فرح. ومن شباب المتعلمين انضم إليها محمد صالح الشنقيطي وبابكر قباني، ومن شباب الضباط خلف الله خالد وعبد الله خليل وغيرهم كثير. النشاط الأدبي كان مدخلهم للعمل السياسي، والحرب العالمية الأولى ارتفعت بدرجة وعيهم: تابعوا الصراع العربي للتخلص من الإمبراطورية العثمانية والتحالف العربي البريطاني، وقرأوا ميثاق الرئيس الأمريكي ويلسون، ونقاطه الأربع عشرة وفي مقدمتها حق الدول التي ترزخ تحت نير الاستعمار في (تقرير مصيرها)، وتابعوا تحركات الشعب المصري وثورته عام 1919م فحددوا موقفاً من الاستعمار. نظر هؤلاء الشباب في أمر السودان ومستقبله فكان تفكيرهم يدور في تلك المحاور الثلاثة - بريطانيا، مصر، والقوى

التقليدية وتحديد الموقف منها وأسلوب التعامل معها واتفاق الرؤى حولها. وما من سبيل لتوضيح آرائهم تلك ينفتح أمامهم سوى المنشورات السرية يرسلونها بالبريد لأهل الرأي في البلد ولرجال السلطة ولقادة المعسكر الأخر.

لعل أول منشور سري صدر عام 1920م وحمل توقيع (وطني ناصح أمين) يلخص لنا الموقف من كل من هذه القضايا في بداياته، مثلما تعكس لنا النشاطات والأدبيات اللاحقة التطور الذي طرأ على تلك المواقف.

**الموقف من بريطانيا:**

اتهم المنشور البريطانيين بانتهاج سياسات تقوم على مبدأ (فرق تسد) هدفها خلق شقاق وتنافر بين السودانيين أنفسهم، ثم بينهم وبين مصر، كما اتهم الإدارة الإنجليزية بمحاولة إذلال السودانيين والحجر على حرياتهم ومصادرة أراضيهم لصالح الشركات البريطانية (مشروع الجزيرة) وإثقال كاهلهم بالضرائب ومحاربة الإسلام لمصلحة المسيحية والجمعيات التبشيرية. وتبرز في المنشور النقاط التالية:

- إن البريطانيين يذيقون (السودانيين من صنوف العسف والجور ألواناً، منها نزع ملكية الأراضي ... ويعطونها لشركاتهم الإنجليزية ... وحرمانكم من حقوقكم المشروعة والحجر على حريتكم الشخصية).
- وهم يستعبدون (جميع الأهالي بلا تفريق بين عبد أو حر، وضيع أو رفيع. ولقد أذلوا العظماء ورفعوا الإذلاء ... ووقفوا حجر عثرة في سبيل التعليم والترقي ... والضرائب الآن تثقل كاهل الغني والفقير على حد سواء).
- (أنهم يحاربون الإسلام بدعوى الحرية الدينية، والمدارس في الخرطوم "الإشارة هنا للمدارس الإرسالية" ترغم أبناء السودان على تعليم الإنجيل وترغم أهالي البلاد الجنوبية على التديّن بالنصرانية ... وتوجد أكثر من ست كنائس في الخرطوم في حين يوجد جامع واحد لم يتم منذ عشرين سنة).
- إن الإنجليز قد سخروا جريدة الحضارة للتفريق بين المصريين والسودانيين (خدمة لمآربهم وأنهم يستخدمون لأغراضهم العلماء الثلاثة زعماء الدين ..[الإشارة للسادة الميرغني والمهدي والهندي] لما لهم من المكانة في نفوسنا ويعلم الله أن سياسة هذه الجريدة على غير إرادتهم).

إن غرض الإنجليز هو أن يستوطنوا السودان كما حدث في (كندا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا وسيلان وغيرها من المستعمرات).

تحديد هذه القوى لموقفها من الاستعمار كان البداية لعمل تنظيمي وتعبوي لمواجهة معه تحكمها ظروفهم وإمكاناتهم. أعدادهم كانت قليلة وقدرتهم محدودة، إمكاناتهم شحيحة وتجاربهم قاصرة - تلك أزمة الرواد في كل مكان ولكنهم، في حدود الممكن والمتاح، تحركوا. بدأوا بتنظيم هرمي يقوم على أساس الخلايا التي يفترض ألا يعرف الأعضاء فيها بعضهم البعض. تكفل كل عضو من المؤسسين أن يستقطب خمسة آخرين. ولكنهم في الواقع كانوا يعرفون بعضهم بعضاً. كان المجتمع ضيّقاً تمحّي فيه الحدود ويلتقي الأفراد فيه دوماً تجمعهم أفكار مشتركة ومشارب متقاربة. استقطبوا الشباب النشط الذي يلتقي معهم في الأفكار، كانت أسماؤهم يومها لامعة في مجتمع العاصمة ومدن الأقاليم، والوسائل المتاحة كانت محددة: المنشور السري يرسلونه بالبريد والمساهمات الأدبية، نثراً وشعراً، التي ارتكزت على تراث وأمجاد العرب يلقونها في الاحتفالات، والأغاني وقصائد الشعر القومي يذيعونها بين الناس ويتداولونها، ورسائلهم التي تتسرب لصحافة القاهرة، وأخيراً - لما اشتد عودهم - البرقيات والعرائض.

**تقرير المصير:**

عام 1922 كان معلماً بارزاً في المفاوضات المصرية البريطانية. لقد رفض مطلب مصر بالاتحاد مع السودان بعد أن مُنحت استقلالاً مشروطاً تحفظت فيه بريطانيا على بعض السلطات، وأرسلت مندوبها السامي في مصر (اللورد اللنبي) ليستقطب تأييد السودان، فاجتمع بممثلي القوى التقليدية الذين ساندوا موقف بريطانيا دون تحفظ وطالبوا بانفرادها بشأن السودان. وإثر ذلك حدد أنصار المعسكر الآخر موقفهم وأذاعوه علناً، فبعث سكرتير الاتحاد السوداني، عبيد حاج الأمين ببرقية إلى الأمير المصري عمر طوسون يعبر فيها عن مساندة السودان لموقف مصر ويرفض انفصال السودان عنها، كما صدرت المنشورات المؤيدة لمصر. هذا وقد أرسل علي عبد اللطيف، أحد شباب الضباط النشطين، مقالاً لصحيفة حضارة السودان يحدد فيه (مطالب الأمة السودانية). لم تنشر الصحيفة المقال، إلا أن نبأه وصل إلى المخابرات الحكومية فتحركت واقتحمت دار الصحيفة وصادرت المقال وحاكمت كاتبه بالسجن سنة كاملة. يستوقفنا ذلك المقال لأنه خرج عن مألوف شعار (الاتحاد) بين

مصر والسودان فهو يطالب (بحق تقرير المصير) ويحدد مطالب تقترب كثيراً من الدعوى للحكم الذاتي الذي يسبق تقرير المصير.

يحدد المقال مطالب أهل السودان في ذلك الوقت (مايو 1922) فيقرر بأن السودان يريد أن يتخلص من الحكم الأجنبي وأن لأهله مطالب عاجلة ينبغي تنفيذها فوراً، وأهمها:

- زيادة فرص التعليم في مختلف المدارس؛
- فك احتكار الحكومة لسلعة السكر حتى تنخفض أسعاره؛
- إعادة أراضي مشروع الجزيرة لأهلها الذين انتزعت منهم؛
- إعطاء المزيد من الوظائف ذات المسؤلية في جهاز الدولة للسودانيين.

جاء في ختام المقال أنه إذا كان السودانيون يحتاجون لمرشد يعينهم على حكم أنفسهم فمن حقهم أن يقرروا مصيرهم ويختاروا بكامل إرادتهم ذلك (المرشد): مصر أم بريطانيا.في هذا الطور المبكر من عمر الحركة الوطنية توصل فكر هذه الجماعة إلى (تقرير المصير) كوسيلة لفك الاشتباك بين دولتي الحكم الثنائي. لم تكن مناداتهم بهذا الحل تخلياً عن دعوة الاتحاد، فقد جاءت نتيجة لإيمانهم بأن السودانيين لو خيّروا بين الشريكين لاختاروا مصر.

غير أن هذا المقال الذي وصل إلى جريدة الحضارة لم ير النور. لم تتمكن الصحيفة من نشره. قال رئيس تحريرها أن الوقت غير مناسب لنشره ولكن خبر المقال تسرب إلى إدارة المخابرات، فاقتحم جنودها مكاتب الجريدة واستولوا على المقال وقدموا رئيس التحرير حسين شريف، وكاتب المقال علي عبد اللطيف إلى المحاكمة. برأت المحكمة الأول لأن النشر لم يتم وأدانت الثاني لأنه (أعد منشوراً يثير الكراهية ضد الحكومة وصل أمره لعلمها وتمكنت من حيازته) فأصدرت الحكم عليه بالسجن سنة.

وبعد سنوات أعلنت لجنة بريطانية كونتها الإدارة الإنجليزية في السودان في التحقيق في أحداث ثورة 1924م؛ أن هذا المقال شكل نقطة تحول هامة (وأنه لا يحوي كلمة واحدة في صالح مصر وأنه يدعو لأن يتولى السودانيون حكم السودان وإنهاء الحكم الأجنبي ... وأن كثيراً مما ورد فيه من أفكار يعبر عن أحاسيس كانت وما زالت مشتركة بين أغلبية صغار المواطنين بل وبعض كبارهم أيضاً).

كان علي عبد اللطيف، عندما كتب هذا المقال وثيق الصلة بجمعية الاتحاد السوداني بحكم الصداقة الوطيدة التي تربطه بسكرتيرها عبيد حاج الأمين، ولكننا لا نستطيع أن نجزم أنه كان عضواً فيها، إذ تضاربت روايات المعاصرين. ففي حين يؤكد سليمان كشة أنه لم يكن عضواً في الجمعية، يشير عضو آخر في مذكراته إلى أنه انضم إلى عضويتها. غير أن التركيز في هذه المرحلة على المطالب وعلى (تقرير المصير) شكّل معلماً بارزاً في توجه الحركة، كما أن الحكم بالسجن على علي عبد اللطيف في هذه المرحلة المبكرة من المواجهة كان له أثره في نقل الصراع إلى مرحلة أكثر حسماً تمثلت في خروج الأعضاء الذين كانوا أكثر إيماناً بالمواجهة الجادة مع الاستعمار من جمعية الاتحاد السوداني - وفي مقدمتهم سكرتيرها عبيد حاج الأمين - وتشكيلهم (جمعية اللواء الأبيض) برئاسة علي عبد اللطيف.

وهكذا وفي عام 1923م وعلى أثر خروج علي عبد اللطيف من السجن تشكلت جمعية اللواء الأبيض. أسس الجمعية خمسة أشخاص- علي عبد اللطيف وعبيد حاج علي الأمين وصالح عبد القادر وحسين شريف وإبراهيم المطبعجي. نص دستور الجمعية على أن غرضها هو (خدمة المبادئ الوطنية ورفض فصل السودان عن مصر)، واتخذت الجمعية شعاراً لها علماً أبيض يحمل خريطة وادي النيل وفي زاويته العليا رسماً للعلم المصري. سعت الجمعية لاستقطاب المزيد من المتعلمين من موظفي الحكومة، ولكنها ركزت بشكل خاص على طلبة الكلية والجنود والعمال وصغار التجار. وكان مولد الجمعية إيذاناً بانقسام الشباب النشط إلى معسكرين: معسكر (جمعية الاتحاد السوداني) الذين آثروا أن يظل العمل سرياً وأن يركز على التوعية عبر الوسائل المتاحة من أدب وشعر واحتفالات دينية، والمعسكر الأخر الذي يريد الخروج إلى العلن والمواجهة بكل أشكالها السياسية الاحتجاجية من عرائض وبيانات ومظاهر فسار بنهجه الذي بلغ ذروته في المواجهة المسلحة عام 1924م.

**الموقف من مصر:**

ونحن نرصد فكر الجماعة الثانية تستوقفنا بعض المؤشرات الهامة:

1. فكرة الاتحاد عندهم كانت أقرب إلى (التحالف) فهم في كل بياناتهم يتحدثون عن مصر والسودان ككيانين في اتحاد. فمنشورهم الأول الذي أشرنا إليه آنفاً يطالب السودانيين بأن يتحدوا مع (إخوانكم المصريين حتى تصلوا إلى أغراضكم من الاستقلال التام)، ويحثهم على (أن يقوموا معهم

بطلب الاستقلال التام لمصر والسودان)، ويؤكد لهم أنه متى (ما تم مرغوبكم كان لهم ما لكم وعليهم ما عليكم). وبعدها بعث سكرتير جمعية الاتحاد السوداني- عبيد حاج الأمين الذي انضم بعد ذلك بقليل لجمعية اللواء الأبيض- برسالة للأمير عمر طوسون تنشرها الأهرام (21 نوفمبر 1922م) يقول فيها إن (حزب الاتحاد السوداني قرر في جلسته المنعقدة في 10 نوفمبر عام 1922 تبليغ سموكم بأن في السودان حركة وطنية أساسها القومية الصادقة وأن لا ينفصل السودان عن مصر بحال من الأحوال).

إن "وادي النيل" بالنسبة لهم يكن مصر والسودان وحدهما بل يمتد إلى شمال يوغندا التي وصلتها القوات الخديوية في القرن التاسع عشر والتي ضمتها بريطانيا لممتلكاتها لاحقاً. لقد جرّ التمسك بالرؤية الخديوية حركة الشباب إلى محاولة (تبريرية) لتجميل وجه الحكم التركي المصري السابق في السودان. كان آباؤهم في الجانب الآخر، بل كانت المعلومات المتواترة كلها تتحدث عن قسوة الحكم التركي في السودان وعن سوء إدارته وفساده وإثقاله كاهل أهل السودان بالضرائب الجائرة. أحسوا أن الدعوة (للاتحاد مع مصر) لا يمكن تبريرها ما لم يناهضوا هذا الفكر، ولذلك فهم في هذا المنشور يؤكدون أن الضرائب التي فرضها الإنجليز أكثر ظلماً وفداحة، وينفون عن الحكم سوءة تجارة الرقيق فيقولون إن الحملات على المناطق الجنوبية كانت تهدف (لإخضاعهم بقصد هدايتهم للطريق المستقيم. وبهذه الكيفية ... كانت الحكومة تنشر لواء العدل والأمن)، ويذكرون السودانيين بأنهم تحت ذلك الحكم شغلوا أعلى المناصب في جهاز الدولة وهم اليوم لا مكان لهم فيه.

2. فكرة (الاتحاد) مع مصر كانت ضبابية غائمة، لم يقدموا لها التفاصيل؛ وإذا كان الجانب المصري قد حدد بعض معالمها عندما أطلق دستور 1923م المصري لقب (ملك مصر والسودان) على الملك فؤاد، وإذا كانت الحكومة المصرية قد أعلنت أنها تحتفظ بعشرين مقعداً لأهل السودان في البرلمان المصري فأن الفكر السياسي لهؤلاء الشباب لم يقترب من نوع الاتحاد ولا تفاصيله واكتفى بعمومياته - ربما لأنهم أحسوا أن الأمر سابق لأوانه أو أنهم كانوا يخشون أن يفتحوا باباً يجرهم إلى متاهات عقيمة تصرفهم عن المواجهة مع الإدارة البريطانية.

إن العسكريين في الحركة- أولئك الضباط الذين عاشوا في مصر قبل الفتح وجاءوا مع الجيش الفاتح وابناؤهم من بعدهم- كانوا ينظرون إلى الموقف من زاوية (قسم الولاء) الذي أدوه للملك فؤاد. كان الجيش في السودان جزءاً من الجيش المصري وكان أفراده يؤدون قسم الولاء للملك ولذلك أدخلوا في

العمل السياسي فكرة (الولاء للعرش) نتيجة للقسم الذي أدوه. على أننا لا نلحظ لهذا المفهوم كبير أثر وسط المدنيين، فهم لم يؤدوا قسماً ولا يربطون فكرة (الاتحاد) بشرعية القسم مثل العسكريين، ويركزون على وحدة اللغة والدين والتاريخ.

3. فكرة التحدي للإدارة البريطانية بإثبات أن أهل السودان يفضلون مصر على بريطانيا مرشداً على عكس ما تقوله القوى التقليدية، قادتهم لطرح شعار تقرير المصير، ولكن كانت لهم أهداف أخرى من وراء الشعار وهي كسب سند عالمي في أجواء الحديث عن تقرير المصير في المحيط الدولي،من ناحية، ومحاولة كسب تعاطف حزب العمال البريطاني الذي وصل إلى الحكم في بريطانيا من ناحية أخرى. وقد بدا ذلك واضحاً في مقال كتبه عرفات محمد عبد الله عن اللواء الأبيض لصحيفة التايمز اللندنية. إن التطورات الداخلية - على أي حال - جعلتهم لا يواصلون الحديث عن تقرير المصير وإنما يتجهون اتجاهاً آخر هو جمع التوقيعات من السودانيين على عرائض تطالب باتحاد السودان مع مصر وإنهاء الحكم البريطاني. هذا التطور جاء نتيجة للاجتماع الذي دعا إليه السيد عبد الرحمن المهدي في بيته في العباسية بامدرمان في العاشر من يونيو عام 1924 وحضره أربعون من قادة المعسكر الآخر وصاغوا فيه مذكرة تنادي بإنفراد بريطانيا بحكم السودان وإبعاد مصر عنه.

تحول معسكر الشباب من المناداة بتقرير المصير إلى إعداد مذكرة معارضة تحمل عدداً أكبر من التوقيعات وتدعي تمثيل أهل السودان. (قالت المخابرات البريطانية أن هدفهم كان جمع 5000 توقيعاً). حمل المذكرة إثنان من أعضائهم حرصوا على أن يمثلا العنصرين العربي والزنجي لتأكيد قومية المطالب: محمد المهدي الخليفة عبد الله التعايشي وزين العابدين عبد التمام. غير أنهما اعتقلا في حلفا وأعيدا للخرطوم. خرجت مظاهرات الاحتجاج في العاصمة نتيجة إعادتهما للخرطوم.

وكانت فكرة التوقيعات تستهوي اللواء الأبيض لأنها بجانب أنها البديل لفكرة تقرير المصير تتماشى مع فكرة (التفويض) التي ابتدعتها الحركة السياسية المصرية التي (فوضت الوفد) الذي سافر ليعرض قضية مصر ويتحدث باسم المصريين- ومن هنا أصبح أسم (الوفد) علماً في دنيا السياسة. كان الغرض من العرائض أن يفوض السودانيون المصريين ليتحدثوا ويفاوضوا باسمهم في مواجهة الإنجليز الذين يستندون إلى دعم القوى التقليدية.

4. فكرة الوفد والعرائض والتفويض كلها انبنت على أساس تنظيم سياسي وخطة عمل سياسية وضعتها

جمعية اللواء الأبيض رغم ضيق إمكاناتها ومحدودية عضويتها. تقول تقارير المخابرات أن كادر الجمعية يبلغ حوالي المائة وخمسين عضواً، وأنهم انتشروا في أغلب المدن الكبيرة، وأن أساليب عملهم كانت تختلف باختلاف الظروف وباختلاف القوى الاجتماعية. فهم يخاطبون صغار رجال الإدارة الأهلية عن طريق الرسائل، ولا يطلبون منهم سوى الامتناع عن التوقيع على عرائض الولاء للإنجليز حتى لا يكلفونهم شططا بالمطالبة بتأييد الاتحاد. وعندما ينشطون في الريف يتفادون الحديث عن القضايا البعيدة عن واقع أهل الريف ويركزون على مشاكل المنطقة كسياسة نزع الأراضي والضرائب الجائرة وغلاء الأسعار. أما في المدينة فيعتمدون على الشباب في قيادة المظاهرات، وكان أكثر قادة المظاهرات تتراوح أعمارهم بين التاسعة عشر والخامسة والعشرين. أما أولئك القادرون على المواجهة المباشرة فكانوا يطلبون منهم أن يكتبوا عرائض تحمل أسماءهم يرسلونها للحاكم العام مطالبين بعدم فصل السودان عن مصر.

وإذا كان هذا هو موقف هؤلاء الشباب الذي حددوه تجاه مصر وتجاه بريطانيا، وكان سافراً واضحاً في الانحياز للأولى ومعاداة الثانية، فإن صراعهم مع القوى التقليدية قد خلق لهم بعض الإشكاليات والتناقضات. ذلك أن الموروثات السلوكية والأخلاقية كانت تفرض على الصغار توقير واحترام الكبار والانصياع لرأيهم، كما تفرض تجلة رجال الدين، وتضفي عليهم هالة من الجلالة والإعجاز. لذا نرى هؤلاء الشباب يبدون كثيراً من التحفظ في بداية صراعهم مع القوى التقليدية. إن المنشور الصادر عام 1921 الذي يحمل توقيع (وطن ناصح أمين) الذي أشرنا إليه آنفاً يعكس هذا التحفظ، فحين يتعرض لجريدة الحضارة التي يمتلكها زعماء الدين الثلاثة (الميرغني - المهدي - الهندي) يهاجم الصحيفة هجوماً قاسياً ويحمّل الإنجليز مسئولية إصدارها ويبرئ زعماء الدين من مسئولية ما يكتب فيها. يقول المنشور: (يعلم الله أن سياسة هذه الجريدة على غير إرادتهم [زعماء الدين] ولكنهم مرغمون على السكوت بالنظر للأحكام العرفية الظالمة). إن شباب الجمعية يعلمون أن الصحيفة تنطق باسم زعماء الدين وتعبر عن أفكارهم حقاً ولكنهم يريدون أن يتفادوا المواجهة.

غير أن المعسكر الآخر لا يعطيهم الفرصة، فهو يشن عليهم الهجوم ويتهم الشباب بالتهور وبالوقوع فريسة للدعاية المصرية فتضطرهم المواجهة وسرعة حركة الأحداث أن يغيروا من أسلوبهم ويتخلصوا في منشوراتهم اللاحقة من هذا (التحفظ) ويمضوا على طريق المواجهة. ها هو أحد

المنشورات (1921/8/15) يتهمهم بأنهم يعبدون الملك جورج ونبيه "السيرلي ستاك" [الحاكم العام آن ذاك]. وفي عام 1922 عندما زار "النبي" المعتمد البريطاني في القاهرة الخرطوم واجتمع بالزعماء التقليديين في سرايا الحاكم واستمع إلى خطبهم المؤيدة لبريطانيا كان هذا موضع نقد وهجوم من معسكر الشباب، عبّر عنه توفيق صالح جبريل شعراً في قصيدة نشرتها له الأهرام تعرض فيها لموقف زعماء الدين مشيراً إلى أن المعتمد البريطاني قد أذلهم، حيث يقول:

ويح قلبي ماذا يروم "النبي" — يوم وافي يجر سيفاً صقيلا
جمع الذهب أرهب القوم حتى — أصبح السيد النبيل ذليلا

ولا تتوقف الحضارة عن مهاجمتهم واتهامهم بالطيش، وتنصحهم بالاستماع إلى آراء كبارهم، وتواصل الغمز واللمز في أصول بعضهم غير العربية وتواضع مركزهم الاجتماعي مقارنة مع عراقة أصول الزعماء وكرم محتدهم، فيزيد ذلك الشباب تطرفاً. وتبلغ الحملة ضد الكبار ذروتها عقب أحداث 1924. نلمس ذلك في شعر البنا وصالح عبد القادر ومدثر البوشي وفي المنشورات السرية. ها هو البنا يتحدث عن التكسب من الزعامة الدينية قائلاً:

وهيكل تبعته الناس في سرف — كالسامري بلا عقل ولا دين
يحتال بالدين للدنيا ليجمعها — سحتاً توريه في قاع سجين

وصالح عبد القادر يعلن خيبة أمله في أهل اللحى حين يقول:

ألا يا هند قولي أو أجيزي — رجال الشرع صاروا كالمعيز
ألا ليت اللحى كانت حشيشاً — فتعلفها خيول الإنجليز

تجاوز الصراع حدود المجاملة وأكره الشباب على التمرد على السلوكيات الموروثة لأن المعسكرين وقفا متواجهين في الساحة السياسية. ولا غرابة في ذلك فأن اختلاف الرؤى والتطورات المتسارعة تفرض منطقها. والشباب يثور ضد القوى التقليدية ويلجأ تارة إلى اللوم على الصمت بما يشبه الاتهام بالجبن. يردد ذلك عبيد عبد النور في قصيدة من الشعر الشعبي:

يا كبار البلد الأمين — السكات دا بيصح لمتين
بينوا لنا الرأي المعين — التكتم هسع شين

فيما يرى مدثر البوشي أن الشيوخ يساومون في مستقبل البلاد لمصلحتهم:

فما روَّعَ العلياء إلا عمائم　　　　تساوم فينا وهي فينا سوائم

كان المعسكر التقليدي يفاخر بانتمائه لأسلاف بنوا دولة السودان المستقلة وهزموا جيش الخديوي ويتهم الشباب بأنه وقع فريسة للدعاية المصرية، ولكن جيل الشباب كان يرى نفسه الوريث الشرعي للتراث النضالي للشعب السوداني منذ عهد السلطنة الزرقاء لأنه يرفع راية العداء للمستعمر البريطاني بينما يتحالف معه التقليديون متنكرين لتراث أسلافهم.

هذا المنطق مكّن معسكر الشباب من تجاوز التناقض وعدم الإحساس بالمأزق الذي وجدوا نفسهم فيه حين يشيدون بالأسلاف- في دولة المهدية أو السلطنة الزرقاء- في نفس الوقت الذي يرفعون شعارَ التعاطف مع مصر الخديوية التي اغتالت دولة سنار والتي هبت في وجه ثورة المهدي. يدهشك أنهم لم يشعروا بأي تناقض في موقفهم هذا. خليل فرح ما انفك يشيد بعظمة الجدود ويتغنى بالأبطال الذين شيدوا مدينة أمدرمان (فتيح وأبو عنجة وود نوباوي وأبروف) في قصيدته: (أذكر بقعة أمدرمان)، ويقف وقفة إجلال أمام المهدي في قصيدته (ما هو عارف):

في يمين النيل حيث سابق　　　　كنا فوق أعراف السوابق
الضريح الفاح طيبه عابق　　　　السلام يا المهدي الأمام

ولكنه في نفس الوقت يباهي بالانتماء لمصر الخديوية ولبابها العالي:

نحن الصولة سيوف الدولة　　　　نحن كنانة اسماعيل
بابه العالي وشرفه الغالي　　　　كان لجدودنا ظله ظليل

هذا الاضطراب في المواقف كان سببه أنهم لا يفهمون (الاتحاد) الذي ينادون به كمدخل (لتذويب) الذاتية السودانية، وإنما يفهمونه (كتحالف) بين كيانين متمايزين (لكم ما لهم وعليكم ما عليهم)؛ وإن ذلك الاتحاد يمثل حاصل (الجمع) لمزايا القوميتين ولا يهدف (لتذويب) واحد في الآخر. إنهم يتحدثون عن أنموذج آخر من نماذج العلاقات السياسية- أنموذج يحاول أن يجمع بين (فضائل) الجانبين: الإرث البطولي للسودان والإرث الحضاري المصري، ولا يريدون أن يشجعوا ما يمكن أن (يفرق) بين الاثنين. إن العباسي يرفض الحديث عن القومية السودانية إذا كانت ستستغل للتفرقة فهو يعلن:

ما تريدون من قومية هي في　　　　رأيي السراب على القيعان رقراقا؟

وهو- حقاً- لا ينكر القومية إلا لأنها تؤدي للتشتيت والإرهاق:

لا تخضعوا: إن في طيات ما ابتكروا　　　معنى بغيضاً وتشتيتاً وارهاقاً

ولذلك لا يجد تناقضاً بين رفضه للقومية السودانية ووقوفه باكياً على أطلال سنار عاصمة السلطنة الزرقاء ناعياً دولتها وعظمة ملوكها، وهي كانت يومها تمثل (القومية) التي يأباها:

كم لها في الرقاب منا ديون　　　وعزيز عليَّ ألا تؤدى
لهف نفسي فقدت يا قبلة الخير　　　كهولاً حموا حماك ومُرْدَا
كنت مثوى للأكرمين وميداناً　　　رخيّاً لخيلهم ومندًى
ورحاباً قد زينت وقباباً　　　زان أرجاءها مليك مفدى

كانت طبيعة العلاقة بين مصر والسودان التي اكتشفها ذلك الجيل تحاول أن تتجاوز (المواجهة) بالتكامل وبلقاء الأنداد دون تضحية بإرث السودان وخصوصيته. وقد أورث ذلك الجيل للأجيال اللاحقة ذلك المفهوم بكل قلقه وغموضه، فانعكس على الأفكار السياسية حتى إعلان الاستقلال، وظل حتى اليوم يشكل سؤلاً يلح في البحث عن إجابة شافية. وما زال أهل السياسة يتجادلون كيف يرسون أسس علاقة توفق بين (الخصوصية) وبين التوحد في إطار وادي النيل!

## الإرث السياسي:

وفي الختام لابد أن نذكر أن ضوءاً كثيراً قد ركزه الباحثون على المدارس الفكرية التي نشأت في الثلاثينات وأثرها على الفكر السياسي السوداني. على أن الفترة من نهاية العقد الأول للقرن وحتى ثورة 1924 لم تجد حظها من الدراسة المتعمقة، وهي الفترة التي شهدت عسر المخاض كما شهدت قمة المأساة عام 1924. ولعل السطور السابقة تلقي الضوء على بعض ما أرسته هذه الحقبة في مجال الفكر السياسي:

- __التنظيم السياسي__: في هذه الفترة ولدت أول التنظيمات السياسية السودانية الحديثة، وقد كانت هناك جمعيات سرية عديدة أهمها الاتحاد السوداني- أول حزب سياسي سري ينشأ في السودان- ثم اللواء الأبيض أول حزب علني يتبنى سياسة المواجهة والإثارة بالمنشورات والمظاهرات والعرائض والمقالات ثم الثورة المسلحة.

- __الأهداف السياسية__: كانت هذه هي المرة الأولى التي تتبلور فيها الدعوة (لوحدة وادي النيل) وتتحدد فيها بعض المطالب الوطنية مثل زيادة التعليم وتولي السودانيين المناصب العليا في الدولة وإعادة

أراضي مشروع الجزيرة. ولابد أن نذكر أن هذه المطالب التي كتبها علي عبد اللطيف عام 1922 عادت لتحتل مكانها في مذكرة مؤتمر الخريجين عام 1942.

- <u>وسائل العمل السياسي</u>: شهدت هذه الفترة التنوع في وسائل العمل السياسي وابتداع أساليب للمواجهة تختلف باختلاف الظروف، ورغم التشدد في المواقف كانت هناك مرونة في الطرح أدت إلى المناداة (بتقرير المصير) في مرحلة مبكرة. هذه هي نفس الفكرة التي لجأ إليها السودانيون ودولتا الحكم الثنائي بعد ثلاثين عاماً لحل إشكالية المسألة السودانية، كما أن اللواء الأبيض "اكتشفت" فكرة (تحالف قوى الشعب العاملة) قبل ثلاثين سنة من دخول ذلك المصطلح القاموس السياسي. فقد كانت اللواء الأبيض تصر أن يقود مظاهراتها فريق من أعضائها مكون من عامل وتاجر وموظف! كما أنشأت تحالفاً مدنياً / عسكرياً.

هذه بعض لمحات عن الفكر السياسي عند هذا الجيل الذي أسس للحركة الوطنية الحديثة وسعى لتجنيد طاقات القوى الحديثة التي حققت استقلال السودان، لعل المزيد من الدراسة لفكرهم يلقي المزيد من الضوء عليه.

## <u>المراجع:</u>


1. مجحوب محمد صالح: <u>الصحافة السودانية في نصف قرن</u>. الطبعة الثانية، مركز الدراسات السودانية، القاهرة 1996.
2. جعفر بخيت:'British Admistration and Sudanese National 1919-1939' Cambridge 1965 رسالة دكتوراة، جامعة كمبردج.
3. فيصل عبد الرحمن علي طه: <u>الحركة السياسية السودانية</u>، الطبعة الأولى، دار الأمن القاهرة، 1998.
4. وثائق المخابرات البريطانية.
5. ديوان محمد سعيد العباسي.
6. ديوان خليل فرح.